عظة في عيد لقاء السيد (الدخول)

القديس ثيوفان الحبيس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يا له من مشهد رقيق يُظهره لنا لقاء الرب! الشيخ سمعان الموقر يحمل الإله الرضيع بين يديه، وعلى جانبيه يوسف البار ووالدة الله الفائقة القداسة. وعلى مسافة غير بعيدة النبية حنّة، صوّامة ذات ثمانين عاماً وامرأة صلاة. عيونهم كلها موجهة نحو المخلّص. اهتمامهم منصب عليه وهم يشربون منه العذوبة الروحية التي تغذي نفوسهم. يمكنك أن تحكم بنفسك كم كانت حالة هذه النفوس مباركة!
ولكننا أيها الإخوة مدعوون ليس إلى التفكير في هذه البركة وحسب، بل وأيضاً إلى تذوقها في الحقيقة، لأن الجميع مدعوون إلى أن يمتلكوا الرب ويحملوه في ذواتهم، ويختفوا فيه بكل قوى روحهم. وعندما نصل إلى هذه الحالة، فإننا لن نتبارك أقل من الذين شاركوا في لقاء الرب. إنهم تباركوا إذ قد شاهدوا هذا اللقاء؛ وسوف نتبارك نحن الذين لم نرَ ولكننا آمنَّا. انتبهوا. سأوضح لكم بإيجاز كيف يتحقّق ذلك. هاكم ما يجب عليكم القيام به.
١. أولاً، توبوا. تذكروا أنه لا ينبغي فعل أي شيء في الحياة الروحية بدون توبة. مهما كان ما يسعى إليه الإنسان، فلتكن بدايته التوبة. كما أنه لا يمكن بناء منزل بدون أساس، ولا يمكن زرع أو غرس حقل دون تنقيته، كذلك أيضاً بدون التوبة لا يمكننا أن نبدأ بحثنا الروحي. وكل ما يبتدئ بدون توبة يبتدئ عبثاً. لذا، توبوا أولاً، أي نوحوا على كل سيئ فعلتموه، واعقدوا العزم على أن تفعلوا فقط ما يرضي الله. سيكون هذا بمثابة توجيه نظركم وجسدكم كله نحو طريق لقاء الرب، واتخاذ الخطوة الأولى على هذا الطريق.
٢. بعد ذلك، حافظوا على حالة التوبة هذه ثابتةً؛ ضعوا لنفوسكم أسلوب حياة وسلوكاً يجعل من كل خطوة أو حركة شيئاً يوجه انتباهكم إلى ربنا ومخلصنا. إنَّ نظام حياة كهذا سيتأسس بشكل طبيعي إذا: أ) قمتم بكل ما تفعلونه لمجد الرب والمخلص، من أجل المسيح. ولا نعني هنا الأعمال العظيمة فحسب، بل كل الأعمال. لأن الرؤية والسمع، والصمت والتحدث، والطعام والشراب، والجلوس والمشي، والعمل والراحة، كلها يمكن أن تكون مكرسة للرب وتتقدس باسمه الكلي القدوس. لا توجد دقيقة لا نفعل فيها شيئاً ما؛ لذلك، بتكريس نشاطكم تقابلون الرب دقيقة بدقيقة، وتوجهون كل أنشطتكم إلى مجده. يمكنكم القيام بذلك بسهولة أكبر وجني الثمار منه إذا قمتم أيضاً بـ : ب) إدخال ممارسة الصلاة في نظام أنشطتكم اليومية – سواء في الكنيسة أو في المنزل؛ وبشكل عام، اتبعوا قاعدة أن تكونوا ملتزمين بدقة بجميع قواعد ونظام الكنيسة المقدسة حتى النهاية، دون إسهاب عبثي وتعليقات مشوهة، وببساطة قلب. بما أن محتوى كل الصلوات هو الرب وتوجّهنا إليه، فبممارستها والاشتراك فيها تقابلون الرب من خلال وجدان قلوبكم وابتهاجها. من ثمّ إذا: ج) ملأتم كل وقتكم الحرّ بقراءة الكتب المقدسة عن الرب، أو الاستماع إلى المحادثات عنه، أو بتأملكم الشخصي فيه وفي عمل الخلاص العظيم الذي عمله على الأرض، فسوف ترون بأنفسكم ما يلي: أنه لن يبقى في داخلنا أو خارجنا ما لا يستحضر ذكر الرب، أو يلفت انتباهنا إليه، أو يحمل روحنا على لقائه.
٣. على المنوال نفسه، لا تنسوا أن كل هذه الأعمال والأتعاب هي مجرد تحضير. لا ينبغي أن تتوقفوا عندها، بل عليكم أن تسعوا إلى الأمام. وكما أن الطعام الذي يُستَهلَك فجّاً يُشبِع الجسد لاحقاً بالعناصر النقية اللازمة للحياة، كذلك يجب أن تتحول هذه الأعمال التي تؤدّى بشكل مرئي وملموس إلى ميلٍ سامٍ أو سعي نحو الرب. بعبارة أخرى، إن العمل على تكريس كل أنشطتنا للرب يجب أن يكتسب صفة الوصول بكل رغبة نفوسنا إلى الرب فقط؛ عندما نؤدي صلواتنا أو نشترك بالخِدَم الإلهية، يجب أن

يتشكّل في قلوبنا شعور بالانسجام فقط مع الرب وما هو له. إن الأساس الذي عليه نقرأ عن الرب ونسمع عنه في الكتاب المقدس يجب أن يكون توجيه انتباه أذهاننا بشغف نحو الرب وحده. هذه الأعمال هي العمل في الحقل بحد ذاته، وهذه الجهود هي نمو ما تم بذره. الأول هو الجذع والفروع، والثاني هو الزهرة والثمر. عندما تظهر هذه الميول فينا، فهذا يعني أن روحنا قد خرجت بكل وعيها واستعدادها للقاء الرب. وبما أن الرب موجود في كل مكان، وهو نفسه يسعى للقاء أرواحنا، فإن لقاءهما المتبادل سيتم من تلقاء ذاته. منذ تلك اللحظة تبدأ أرواحنا بتذوّق بركة سمعان الصديق. أي أنها تبدأ في أحضان قواها بحَمل السعي إلى الرب الذي هو رضاها وشبعها الكامل. هذا ما يُسمى تذوق الرب، والراحة فيه، والوقوف عقلياً أمام الرب، والسير في حضرة الرب، والصلاة المستمرة – مبتغى عمل جميع قديسي الله ورغبتهم وسعيهم.

أتمنى أن يُمنح كل الذين تحتفلون بلقاء الرب هذه البركة. إذا اشتكى أحد من أنه يرغب في الثمار إلا أن العمل للحصول عليها صعب للغاية، فالجواب هو: جيد. هناك طريقة أسهل، وطريقة أبسط من تلك المذكورة. ها هي! تُبْ؛ ثم، بغيرة لحفظ كل وصايا الله، اسلكْ بلا كلل في حضرة الرب، ساعياً إليه بكل انتباه عقلك، وكل مشاعر قلبك، وكل رغبات إرادتك. إذا وضعت نفسك بهذه الطريقة فسوف تقابل الرب قريباً. سوف ينزل إليك ويسكن فيك، كما في حضن سمعان الصديق.

ما من طريقة أخرى لتخفيف الجهد اللازم للسعي إلى لقاء مع الرب. صلاة يسوع: أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني، هي قوية وقادرة على المساعدة في هذا العمل. ولكنْ، أكرر مرة أخرى، لا لوحدها؛ بل بشرط أن تكون كل قوة أرواحنا موجهة نحو الرب! اُصْحُوا وَاسْهَرُوا (١ بطرس ٥: ٨). فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ... وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ (كولوسي ٣: ١، ٣). حينئذ، إذ قد أصبحتم واحداً مع الرب في الروح (راجع ١ كورنثوس ٦:١٧)، تنظرون إلى الرب وتعانقونه، فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ(يوحنا ١٦:٢٢). لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي. آمين.

Source: St. Theophan the Recluse. Homily on the Meeting of the Lord. translated by Nun Cornelia (Rees). Pravoslavie. 3/14/2013. https://orthochristian.com/44773.html